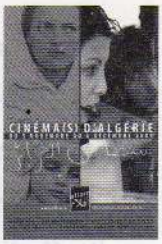

إشكالية التنمية والإعلام من خلال السينما في الجزائر

بقلم: د. زيان محمد
جامعة الشلف

في مطلع الثمانينات، بـــدأت بـــوادر التغير تظهر على المجتمع الجزائري بوتيرة سريعة، نتج عنها تغيرات اجتماعية واقتصادية وثقافية وسياسية، حيث لم تعد الاشتراكية إيديولوجية مثالية، كما لم تعد الرأسمالية واقتصاد السوق العدو اللدود للشعب، وعلى هذا الأساس يُسترعى الانتباه لطبيعة التعاطي مع هذه الظروف في علاقة السينما بالتنمية"

إن المبـتغى الحقيقـي من بـرامج التنمية في المجتمعات النامية هو إحداث طفرة نوعية في اتجاهات الأفراد وقيمهم، عن طريق إحـداث تغيرات في بـيئتهم المادية، وبـالتالي إنشـاء علاقـات جديدة بـينهم وبين الموارد الاقـتصادية، وإدخال الوسـائل التكنولوجية الحديثة في الإنتاج، التي تؤدي بطبـيعة الحال لتغير النشـاط العملي(إنتاج، دخل، استهلاك، ابـتكار وسـائل جديدة..)، والذي بـدوره يترتب عليه تغيرات في التركيبـتين الاجتماعية والعلائقـية ومجموع القـيم وأنماط التفكير(سـلوك، عادات، تعليم، وسياسـة) والتي يُشـار لها عادةً بالفكر.

سأحـاول في هذه المداخلة توضيح بـعض ملامح إشـكالية الإعلام والتنمية من خلال الســينما، خاصة مع التحـــولات الهامة التي يعرفها المجتمع الجزائري منذ عدة سنوات

بـــفضل سياســـة التنمية المنتهجة من طرف الدولة ومن محركاتها الرئيسة عملية استيراد التكنولوجيا والأفكار التقنية بـكل ما تتضمنه من محتويات ومضامين، وهدفها الرئيس مسـايرة التطور والتقدم العالمي، وقـد كان الغرض منها تحويل البـنيات الاجتماعية

والاقـتصادية والثقـافية، التي يُعتقـد أنها تشـكل عائقـاً أمام هذه التنمية؟.

نعتقـد أن مسـاهمتنا هذه، سـتكون أكثر نجاعة لو اسـتعنا ببعض الأعمال الفنية في دراسة تزامنية، وتطبيقاً على بـعض الأفلام التي قُدمت في الجزائر وتحليلها تحليلا سيميولوجياً، والاطلاع على طبيعة الإعلام السينمائي وعلاقـته بـالتنمية، وهو الأمر الذي لم نجد يُســراً في الحصول عليه في فترة وجيزة تمكننا من الإلمام الشـــامل بالموضوع وطرحه في شكل مقبول، لكننا مع ذلك نأمل أن نجد

باحثين يقاسموننا نفس التصور، ونفس مشاعر القلق البحثي والرغبة في الفهم المنهجي.

1- إشكالية الإعلام والتنمية:

تأثر الفكر التنموي في دول العالم الثالث بشكل كبير ومنذ الخمسنيات بالتجربة الغربية الرأسمالية، لذا حاول أصحاب هذا الفكر اللحاق بركب الدول المصنعة منذ ما يقارب العقدين من الزمن، لكن مع الوقت أثبتت التجارب الحاصلة مدى افتقاد هذا المنهج، للتفكير الواقعي، والذي كلّف هذه الدول انتكاسة كبيرة وخيبة أمل انعكست سلباً على أجيال متعاقبة في مقدمتها فئة الشباب رغم كل المحاولات لإنعاش هذا التصور عن طريق وضع السبل والمخططات التنموية في شتى المجالات، كمحاولة للتحكم في سرعة التغير الحضاري بهدف إشباع حاجات المجتمع من أجل الانتقال به من مرحلة التخلف إلى مرحلة التقدم..

لقد استغلت السينما لنقل هذه الأفكار والمعارف والمعلومات المشبعة بالخطابات السياسية والشعارات الإيديولوجية التي لم تزد سوى من تأزيم ظروف دول العالم الثالث ومنها الجزائر، بتوسيع حجم هوة الشعور بالتخلف عن ركب الدول المتقدمة، ففي الجزائر ترجمته أعمال سينمائية على مدار أكثر من ثلاثين سنة منذ الاستقلال بإنتاج ما يفوق ١٢٠ فيلما حربيا(تاريخي، وثائقي، روائي...)، ساهمت بقدر كبير في تشكيل الصورة النمطية للبطل التاريخي، وهو ما قد ينطبق على معظم الدول العربية التي خرجت من رقبة الاستعمار حديثاً ثم دخلت معترك البناء والتشييد رغم أننا"لا نزال نعيش في ظل نظام اقتصادي وسياسي واجتماعي وحضاري عالمي تعمل آلياته تلقائياً لصالح المركز الذي يتكون من عدد محدود من الدول الرأسمالية، وبفرض سياساته على التخوم أي دول العالم الثالث".[1]

إن الدول الغربية تحتكر الوسائل والإمكانيات وتستعمل في الغالب القوة والعدوان المباشر والتهديد، وكل عوامل الضغط على الدول التي تشكل خطراً على كيانها، كما أنها تتحكم أساساً في وسائل الإعلام والاتصال وعلى رأسها السينما، ويتجلى ذلك "في احتكار وكالات الأنباء الأمريكية والغربية والبريطانية لمصادر الأنباء في العالم عدا البرامج التليفزيونية والإعلانات التي يتم من خلالها تشكيل القيم والآراء وأنماط الاستهلاك وأساليب الحياة في دول العالم الثالث"[2]، وأمام كل هذا بقيت السينما في الجزائر كأنها فارس دونكيشوتي يراوح مكانه في استعراض النضال الثوري، تتناول الأحداث التاريخية وتتغنى بالأمجاد والبطولات لكن تناسى القائمون على شؤونها التطور الحاصل في المجتمعات الغربية وتأثيره على المجتمع خاصة عبر التلفاز والسينما والفيديو والأنترنت، بحيث تصدعت بنياته الاجتماعية كثيراً بفعل الدعاية والإعلان، كما نتج عنها العديد من المشاكل الاجتماعية والصعوبات التي وضعت القادة والسياسيين، الذي يقررون عمليات التغير الاجتماعي في مآزق أدت لهدر الجهود والوقت والإمكانيات المادية.

لقد أضحى الفرد الجزائري لا يؤمن بالتبدلات والتغيرات الحاصلة في مجتمعه إلا بالعودة للماضي لكي يستلهم منه القوة لمواجهة فشله أمام عجلة التنمية البطيئة، وهذا ما تفسره الكثير من الأفلام التي -لا مجال لحصرها-، خاصة في الثمانينات ونهاية التسعينيات، التي ينتهي فيها الأبطال بالصمت والسكون واللامعقول أحياناً، أو اللامبالاة، إنها الصورة التي غرستها هذه الأفكار عن طريق السينما، وقد يفسرها البعض أنها حيلة ماكرة لإذكاء الاغتراب لدى المتفرجين لتتركهم يتساءلون عن مغزى ردود أفعال الأبطال لكي ينتفضوا على أوضاعهم وبالتالي السعي لقيادة المجتمع نحو الثورة، لكنهم تغافلوا عن ما تفعله الصورة من تغيرات في السلوك والذهنيات والأفكار، في خضم المنافسة والتطور السينمائي العالمي في أوربا وأمريكا.

يمكن القول -ها هنا- إن من الأسباب الرئيسة لإخفاق الإعلام وكذا التجارب التنموية المستوردة وعجزها عن تطوير المجتمع والحيلولة دون ارتقاء الإنسان تفسر"أن إنسان هذه المجتمعات لم يُنظر إليه باعتباره عنصراً أساسياً ومحورياً في خطة تنموية، مهما كان ميدانها تمس تغير الإنسان ونظرته إلى الأمور في المقام الأول، ولابد إذاً من وضع الأمور في إطارها البشري الصحيح، وأخذ خصائص الفئة السكانية التي يُراد تطوير نمط حياتها بعين الاعتبار"[3]، وهذا على غرار من نقلته الصورة الباهتة في السينما عن

ذلك الإنسان العاجز عن تغيير واقعه الغامض في الشخصية والفاقد لاتخاذ القرار أو البعيد عن الواقع المعيش والغارق في أوهامه وفي ظروف اجتماعية تبدو كما لو أنها قدره المحتوم.

هذا طبعاً كان له انعكاس سلبي على المتلقين من الجماهير، وبالتالي نجم عن ذلك التخلّف والتبعية عن الدول الكبرى التي يوردها بعض الإعلاميين والسينمائيين في الغالب للفترة الكولونيالية ومخلفاتها العويصة، رغم المحاولات الجادة للبحث عن استراتيجيات وسبل بديلة للتنمية، من طرف العلماء والباحثين والسياسيين، والتي طرحت في الواجهة مسألة اختيار النموذج الأمثل انطلاقاً من ثقافة المجتمع وخصوصيته بدل استيراد النماذج من الخارج وتطبيقها حرفياً، لكن للأسف بعد أن تم افتقاد الخيط الرفيع للأمل في بناء إنسان قادر على حمل أفكار هذا النموذج التنموي الهائل، فالأمر أشبه بكونك تقوم بإدخال بطيخة في فتحة صغيرة، لأنك جردته من كل مقوماته الأساسية وشحذته بأفكار لم يطق على استيعابها لأنها أكبر من عقله، فتلقف أفكارا أخرى دون نقد أو تمحيص، حتى ولو كانت لا تتلاءم مع ثقافته وقيّمه وعاداته.

2- الإشكالية من وجهة نظر رجال الإعلام:

إن انتهاج الجزائر على -سبيل المثال- لنفس النهج الغربي بالخصوص في مجال السينما أملته ظروف تاريخية، حيث "عرفت مع بداية السبعينيات تغيرات جذرية عدة في مجالات نذكر منها على سبيل المثال الثورة الزراعية والتأميمات التي مست مختلف القطاعات، كان من البديهي أن تساير السينما هذه الأحداث، وتؤثر فيها و لا تبقى حبيسة أفلام حرب التحرير التي كان موضوعها الوحيد لمدة أطول"[4]، أدى ذلك الانتهاج غير الواضح المعالم والفاقد للرؤى الفكرية إلى تردية أوضاعها فلم تستطع أن تكسر حلقة التخلف التي وقعت فيها، وبالتالي ساهمت في زيادة الهوة بينها وبين الدول المتطورة، وقد "اعتبر البعض هذا الإخفاق دليلاً على سيطرة الأبنية التقليدية على هذه المجتمعات، بالشكل الذي فوّت عنها فرصة الانخراط في مسار التطور الحضاري، وحرمانها من تقبّل التحديث على النمط الغربي"[5]، ما يعني أن مساهمة السينما في سياسة التنمية لم تأخذ بعين الاعتبار المجتمع وآلياته، ودورها في إنجاح المشروع التنموي، ما أدى بالضرورة لتعميق المأزق، والتنظير للتخلف والانتكاس الفكري والنكسات المتتالية(تفاوت طبقي، اغتراب، عزوف الجماهير عن التنمية، هدر الطاقات الفنية والبشرية على برامج لا تعكس الواقع...).

كما حاول بعض المنظرين في الإعلام والسينما العالمية "أن يفرضوا على شعوب العالم الثالث نماذج التنمية الرأسمالية سواء في الاقتصاد أو في الإعلام مما أدى لتعميق التبعية من الناحيتين الاقتصادية والثقافية حتى أصبحت هذه الشعوب في حالة عجز وانتظار دائم للمعونات التي تأتيها على شكل معونات اقتصادية وتكنولوجية وأفكار وقيم وثقافات"[6]، ولمواجهة هذا النظام برز الانتهاج الاشتراكي الذي تبنته العديد من الدول العربية منها الجزائر لمواجهة التخلّف وأسبابه؟، لكن دون أن تقدم سبلاً تكفل التنمية، وبالتالي تم الاستعانة بوسائل الإعلام والصحافة لتعبئة الشعوب وتربيتها الفكرية والأيديولوجية، لكنها هي الأخرى فشلت في مشروعها، لأنها عجزت عن تغير الواقع الإعلامي (زيادة الهوة بين الفكر والواقع).

3- الإشكالية من وجهة نظر المختصين:

يبدو أن التنمية وضعت أمام المختصين السؤال: ما هو الدور الحقيقي للإعلام السينمائي؟ ووضعت بعين الاعتبار أيضاً كونه ليس له دور استراتيجي إعلامي فقط بل سياسي واقتصادي، فإما أن يكون الإعلام أداة جوهرية للتنمية السياسية والاجتماعية، وبالتالي يخضع لسلطة الدولة ورقابتها، حسب النهج الاشتراكي، أو أن يحظى باهتمام ضئيل والتقليل من شأنه في التغير الاجتماعي حسب النهج الرأسمالي، وبالتالي التعبير بحرية عن آراء النخبة المهيمنة ومصالحها.

إن الأمر الذي ينقص هذه الحلقة هو الاهتمام بالجانب الإنساني من خلال التنمية الاجتماعية، ومحاولة توجيه الأفراد إلى حياة أفضل عن طريق العمل والتعليم والتدريب وهو أمر منوط بالإعلام، لأنه يهيئ الأرضية الخصبة لتنمية شاملة، وإذا كان هناك تغيرات على المستوى الاجتماعي، فسينعكس ذلك على الجانبين السياسي والاقتصادي، وبالتالي كان من المفروض الاهتمام بمدى

تأثير الإعلام السينمائي على تطوير المجتمع، خاصة إذا علمنا أن مفهوم التنمية في الدول العربية، يعني تغير نمط الحياة التقليدية، لكنه ذاته يصطدم بموجات صدّ عنيفة تجابه التغير وترفضه، إذ من شأنه القضاء على الخصوصية الثقافية العربية.

كما هو معلوم، فإن وسائل الإعلام السينمائي تلعب اليوم دوراً هاماً في الترويج للأعمال الفنية والأفكار والمنتجات، وهي وسيلة اتصال مباشرة للوصول لجماهير واسعة من المجتمع، بغض النظر عن مستوياتهم المادية أو الفكرية، فهي مهمة لرصد الأعمال الفنية وتحليلها وتقديمها للمشاهد للمتابعة والاستفادة منها، إلى "جانب ذلك يساهم الإعلام في ظل المتغيرات السياسية التي تعيشها الشعوب العربية في انتقاد الكيانات الفاسدة التي تعيق الإصلاح في الوطن العربي"[7]، ومن ذلك المنطلق، يُفترض أن يكون الإعلاميون ذوا دراية واسعة بمجالات مختلفة، كالسينما والموسيقى والمسرح والفنون التشكيلية وغيرها، لكي يتسنى لهم تقديم رسالتهم بأمانة في ظل المتغيرات الحاصلة على الساحة العربية وفي مقدمتها ما يصطلح عليه بالربيع العربي أو الثورات العربية، إذ يستوجب أن يقوم الإعلام خاصة السينمائي بدوره الحقيقي، بما أنها تتعرض للقمع والتعتيم من طرف السلطات، بفعل انتقادها للأوضاع السياسية والاجتماعية أو بسبب تقديمها لبعض القضايا المصيرية عن طريق الرؤى الفنية البصرية ارتقاء بالسينما في ظل التنافس الاتصالي والإعلامي.

في الأخير، يمكن أن يعبر الإعلام السينمائي عن هموم وقضايا المجتمع وتطلعاته بالمساهمة في تنويره فكرياً للمشاركة الفعالة في المشاريع التنموية والإصلاحية كما ينمي لديه حس المواطنة والذوق الرفيع في تناول القضايا الحساسة التي تنقلها الشاشة السينمائية عن طريق النقد والمناقشة، وبالتالي يكون دوره تكاملياً في جس نبض المواطن والوقوف إلى جانبه في قضاياه الحقيقية، لكن يجب الأخذ بعين الاعتبار المصالح الوطنية للبلاد والثوابت التاريخية في تصوير وتقديم صورة مشرفة في الداخل والخارج شريطة أن لا تكون ذريعة للتدخل في الشأن الوطني أو ورقة للضغط على السلطات أو الحكومات.

4- دور السينما الجزائرية في التنمية:

ما هي طبيعة العلاقة بين السينما والتنمية؟ هل هي علاقة تواصل أم انفصال؟، وهل كل سينما بإمكانها أن تقدم تنمية؟ للإجابة عن هذه التساؤلات، لا بأس أن نُذكر أن التنمية عملية معقدة، لها أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وغيرها، تخص المجتمع، أداتها وهدفها الإنسان، أما السينما فهي فن راقي وتجارة في ذات الوقت واستثمار، وهي تساهم في الرفع من التذوق الجمالي والحسي للإنسان، وتوسع آفاقه وطموحاته من خلال عرض القضايا الهامة التي تربط ماضيه بحاضره، لذا نعتقد أن السينما والتنمية عنصران هامان في زمن باتت فيه الصورة سيدة الموقف في النقل والنشر وهو الأمر الذي أحاول تبيانه في هذا المقال، جاهداً لكي يكون مدخلاً لإعادة قراءة نقدية في المستقبل للدور الذي تلعبه السينما في الجزائر في مجالات متعددة.

لعبت السينما الجزائرية دوراً هاماً في التنمية، خاصة في السنوات الأولى من الاستقلال، إذ ركزت أفلام تلك الفترة على خصوصية المجتمع الجزائري، وعلى الثوابت الوطنية وقدسية التاريخ والشرف والبطولة والتضحية، هذا موازاةً مع أحداث تاريخية عميقة هندست للصورة النمطية للجزائري واعتزازه بتاريخه مثل: القضية الفلسطينية في الحرب العربية الإسرائيلية والقضية الصحراوية والثورة الزراعية والعديد من القضايا الإنسانية التي سجلت فيها الجزائر مواقف يشهد لها التاريخ، إذ عملت السينما الحفاظ على هذا الإرث الثقافي من خلال نقله القريب من الواقع كمعارف وقيم وعادات ومعلومات تاريخية، لكن بين1972-1992 بدأت تحولات جديدة في مستوى هياكل السينما "بعد احتكار الديوان الوطني للتجارة والصناعة السينماتوغرافية للإنتاج والتوزيع عام 1967، أضيفت له مهمة أخرى، تتمثل في الإشراف على الأحداث المصورة وذلك بضمه ديوان الأحداث المصورة عام ١٩٧٤ وواصل الديوان تسيير السينما الجزائرية وإنتاج الصحافة إلى غاية 1984، وهو تاريخ إعادة هيكلة المؤسسات السينمائية"[8]، وتم تقسيم الديوان إلى: الوكالة الوطنية للأحداث المصورة(ANAF، والمؤسسة الوطنية للإنتاج السينمائي(*ENAPRO*، والمؤسسة الوطنية للتوزيع

السينمائي(*ENADEC*، غير أنها وللأسف فشلت في أداء مهامها في إعادة الاعتبار للفن السينمائي وسقطت الواحدة تلوى الأخرى نحو الإفلاس بسبب سوء التسيير والصراعات بين المسؤولين وعدم القدرة على تغطية مصاريف الإنتاج والتوزيع والإشهار، كما أن قاعات العرض السينمائية تدهورت أوضاعها وتقلص عددها وباتت تقوم بعرض أفلام الفيديو، وهذا كانت نتائجه وخيمة على السينما بسبب عدم القدرة على وضع تصور واضح يعيد لها دورها النقدي أو التجديدي في الدفع بها إلى الأمام هذا من جهة، ومن جهة أخرى تم اغتيال الثقافة السينمائية وسبل نضجها في أداء وظيفتها التنموية.

بداية التسعينيات عرفت الجزائر هزات ارتدادية كادت تعصف بالوطن بسبب سوء تقدير للأوضاع وضعف في تحديد السبل السياسية الناجعة لتفادي الحرب الأهلية، إذ تأثرت السينما وتراجع الإنتاج السينمائي وغادر الممثلون والمخرجون البلاد خوفاً على أنفسهم من أن تغتال غدراً، وازدهرت في المهجر صناعة أخرى للسينما لكنها أكثر نقداً وجرأةً من سابقتها بل وحرية في تناول القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية، ولكن هناك تفاوت واضح في استخدامها في مجال التنمية، وهي غالباً ما تهتم بأمور جزئية أو يومية أو نمطية، وتأخذ طابع الدعاية والإعلان بدل التوعية والتثقيف، ما يحيل إلى كونها لم تؤدِ وظيفتها كما ينبغي، كما أن من يوكل له الاتصال التنموي عادة ما يعجز عن إنجاحه لقصوره الفني والفكري أو لمثاليته البعيدة عن الواقع الاجتماعي.

لذا يمكن القول: إن التنمية في الجزائر مرهونة بمدى توفر الطاقات البشرية الواعية بمسؤولية الالتزام بها واستيعاب أهدافها والاقتناع بجدواها، ولعل هذا الأمر متروك للإعلام، لأنه يؤكد هذه الخطوات لدى الفرد ويعمق علاقته بمجتمعه ويربط ماضيه بحاضره، وهذا ينعكس إيجابياً على الجانب السياسي ثم الاقتصادي، لأنه سيعيد صياغة الكثير من المسائل محل سجالات عميقة(المرأة، المدينة والريف، الطفولة، الصحة، الشباب والقيم...)

خلاصة:

إن التنمية الجزائرية مشروع قاصر لم يكتمل بعد رغم كل الوسائل التي سخرت له وعلى رأسها السينما، نظراً لكونه عملية غير واعية، ولم يتم التخطيط لها مسبقاً، لأنها رضخت لظروف سياسية واقتصادية أغفلت الجانب الاجتماعي، وبالتالي حملت بذور إجهاضها، كونها لم تنتقل بالمجتمع نحو حياة أفضل، بل أدت به للعودة للوراء والغوص في أعماق التخلف والتبعية وكان للإعلام دور كبير في هذا المأزق.

لقد أثبت أتباع النموذج الاشتراكي قصورهم الواضح والذي لم يخدم المجتمع الجزائري، بل كرّس التخلف والتبعية وثبت الهيمنة الغربية عن طريق الشركات المتعددة الجنسيات وغيرها، والتنظير للعنصرية المركزية والطائفية والنعرات القبلية والجهوية بدل الحفاظ على تجانس المجتمع، وقد ساهم الإعلام السينمائي بشكل كبير في تشكيل واقع التخلف، لذلك يعوّل الكثير من المختصين في مساهمة الإعلام السينمائي التنمية كعملية شاملة يمكن أن توجه نحو كافة مكونات البناء الاجتماعي وتستدعي جهود الجميع، وقد يلعب الإعلام السينمائي دوراً وظيفياً تتجسد مظاهره في سلسلة التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

الهوامش:

1- صالح خليل أبـو أصبـع. الاتصال والتنمية المسـتدامة في الوطن العربي. الأردن: دار البركة للنشر والتوزيع، ط1، 2009، ص219.

2- المرجع نفسه، نفس الصفحة.

3- مصطفى حـجازي. التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سـيكولوجية الإنسان المقهور. المغرب: المركز الثقافي العربي، ط9، 2005، ص10.

4- صبـاح سـاكر. السـينما والسياسـة، صورة المجاهد في السـينما الجزائرية. الجزائر: تكسـيح كوم للدراسـات والنشـر والتوزيع، 2012، ص68.

5- نور الدين زمام. القوى السياسية والتنمية دراسـة في علم الاجتماع السياسي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص81.

6- صالح خليل أبو أصبع. المرجع السابق، ص 220.

7- أحمد عبـد المالك. قـضايا إعلامية. عمان: دار مجدلاوي، 1998، ص10.

8- صباح ساكر. السينما والسياسة، مرجع سابق، ص61.